

العنصر العربي (١)

يمثل مؤتمر الكرم رجال العلم والشرع ، في جزء غير قليل من بلاد العرب ،
فن حقه اذن ان يسود جوه حربية من الفكر ، وسرية من الرأي ، يعبر عنها
صاحبها بصراحة في القول ، لا غمغمة معها ولا جمجمة ، واي قيمة تبقى للعالم بله
القانون والشرعية ، اذا جبن المرء عن عقيدته ، يعالنها بها محضة مخرصة .

هذا ماجمل الخطباء - في هذا الموسم القضائي العربي - بدني كل منهم بما
يبدو له انه الحق وهذا ما يحملني على ان ألقني كلمتي هذه . ما أعددتها من قبل ، ولكنني
استمدتها مما قاله بعضهم ، فهي كلمة اوحتها كلمات ، تتناول كلمتي هذه موضوعات ثلاثة :
العنصر العربي - القضاء اللبناني - الشرع الاسلامي .

١ - العنصر العربي : أطلق على هذا المؤتمر « المؤتمر العربي للمحاميين » « ومؤتمر
المحاميين العرب » وملأت اجواء هذه القاعة : قاعة المحاضرات وجنيلتها ، كلمات العرب ،
والعروبة ، والقومية العربية ، وكل ما ينطوي تحت ذلك ويتصل به ، من امثال
هذه الألفاظ والتعبيرات .

وسمعت خلال ذلك تمجيات وهمسات ، تتردد على الشفاه وتلقى في الآذان ،
الفيشة بعد الفينة ، ينساءل اصحابها عما اذا كانت هذه الشعوب التي تتوطن هذه
الأقطار المترامية الأطراف ، ما بين المحيط الهندي وبحر الظلمات ، هي حقيقة أمة
عربية واحدة بالمعنى الصحيح الذي يفهم من قولنا « أمة » .

ولم اسمع من الخطباء والمحاضرين ، من عني بهذا الموضوع او فعرض له ،
والميدان ميدانه ، اذ هو بحث اجتماعي ، يتصل بالأبحاث القانونية ، بأوثق الأسباب ،
بل هو البحث الذي تقوم على صحته وصدقه سياسة هذا المؤتمر ، وما يرمي اليه
من اهداف وغايات .

(١) ملخص المحاضرة التي ألقيت في مؤتمر المحامين المقود بنمتهق في ١٢ آب سنة ١٩٦٤ وهو
لمحات قد نود فتوسع فيها يوماً من الأيام .

لذلك رأيت ان استهل ككتي بهذا السؤال :
هل نحن ابناء هذه الأقطار التي نتكلم العربية ، عرب حقاً ؟ ام نحن ابناء لغة
نطقنا بها فانتسبنا اليها لساناً لا عنصراً ، فبنوتنا في العروبة تنتهي عند هذه اللغة ،
لا تتجاوزها الى البنية القومية ، دع بنية العنصر والدم ، ونحن — اقصى امرنا —
انا ابناء اللغة العربية ، وبلادنا ، على ما يقول بعضهم الى اليوم — بلاد العربية —
على الاضافة وسندف المنساف اليه : اي بلاد اللغة العربية — لا البلاد العربية —
على البعت والصفة .

اذا قلنا بادي الرأي ، ان صلتنا بالعرب الأولين تقف عند اللغة ، فأى شعب
من الشعوب المتحضرة لم تكن اللغة هي العامل الأول في تكوينه ، واي شعب
يستطيع ان يزعم لا بنائهم ينحدرون من اصل واحد جامع ، ويجري في عروقهم
دم خالص محض ، لا هجنة فيه ، ولا فيه قرف .
لا! ليس في أم التاريخ الحاضرة حتى ولا الغابرة ، أمة مها بلغ من عنجيتها وصلابتها ،
ومن اعتدادها بنفسها واصلها ، ليس من أمة لها ان تقول صادقة ، انها ليست في
سهرتها الكبرى من فعل لغتها وتكوينها .

ولكم في التاريخ من محاولات ، عجزت عن ان تفرق بين الدخيل والأصيل ،
بل قد يغلب الدخلاء ، الا صلأ على امرهم في قلب بلادهم ، وفي اخص مستخصاتهم ،
حتى اذا اشر كافي اللغة عادا وهم شعب واحد ، واضلمهم — على مر الأيام وزعمهم —
جميع والأمثال على هذا ، ولا سيما في أوروبا اكثر من ان تعد بالفتنرات ^(١) .
فاللغة في الحق والواقع ، هي التي تضير الأفراد أمة واحدة ، والناس للغتهم ،
اكثر مما هم لا بانهم .

(١) أستطيع أن تفرق بين النوليين (Gaules) سكان فرنسا الأصيلين وبين الفرنك
(Francs) — واليهم يتسب الفرنسيس — وهم قبيلة جرمانية وكذلك الفزيكوت [القوط الغربيون]
Wtsigotts والهن Huns ؟ أو أستطيع أن تفرق بين النورمانيين والسكسونيين في انكثرة ؟
إلى كثير غيرهم من الشعوب المختلطة المتمازجة في غيرها من البلاد .

وفنيكاً قال النبي العربي العظيم: ليست العربية لأحدكم بأب ولا أم، وإنما هو اللسان، من تكلم العربية فهو عربي.

وإذا كانت اللغة وحدها هي التي سبّرت كثيراً من الجماعات شعباً واحداً، فمن العرب في هذه الأقطار -- التي نعرها -- أمة واحدة بشيء آخر غير اللغة.

نحن أمة بالعنصر، بل بكثير من الدم الواحد، وبالتاريخ، وبالتشريعة والحضارة، وبسائر الخصائص التي تتألف منها الأمة الواحدة من آمالي وأهداف وآلام وآمال في غابرنا وحاضرنا ومستقبلنا، ولا نريد أن نزعّم أن هذه الأمة العربية هي بأسرها وفي أصلها، من عنصر واحد، ودم واحد، فهذا ما نعتقد أن يقع مثله لشعب من الشعوب المتحضرة، وإنما نقول أن العنصر والدم العربيين، هما الغالبان في هذه الأمة، غلبة ما يتوفر لأمة من الأمم مثلها إلا في الندرى، وأخرى: هي أن الذين استعربوا فعُدّوا في الأمة العربية، لبسوا غرباء عنها كل الغربية، بل كانوا في سوادهم الأعظم من اخواننا وبنائنا وعمومتنا، في العرق، فهل بذلك اندماجهم فينا اندماجاً سريعاً كاملاً، لم تقو السنون والتكيات على تزيقه وتنكيكه، ولا القضاء عليه.

وكلمة بعد، في وحدة العنصر وغلبة الدم، إذا لم يتسع الوقت للإفصاح فيها، فلا يصح أن نغفلها فلا نذكرها، ذلك أنه قام في مصر ولبنان في فترة من الزمان، من يقول بفرعونية مصر، وبفنيقية لبنان.

أما مصر، فحسب أحدنا أن يرجع إلى ما قاله الكندي في «أخبار القضاة» والقلقشندي في «صبح الأعشى» وهما مؤرخان مصريان؛ فلقد ذكرا القبائل العربية التي نزلت مصر قبيلة قبيلة، وهي تعد بالمئات، يكفي بعضها أن يلد في ثلاثة عشر قرناً ما يزيد على تسعة أعشار المصريين اليوم.

ولبنان احتل العرب كثيراً من جوانبه قبل الإسلام «وعشعشوا» على تعبير الأب لامنس - في جباله الساحلية الممتدة من طرابلس إلى جبيل، وملكوا الجبل الشرقي والبقاع، ثم كانت إليه في الإسلام هجرتان عربيتان: هجرة نصرانية من مشارف الشام، وهجرة اسلامية من أرياض العراق.

ولبنان عربي ببيوتاته القديمة العريقة ، اسمائهم واحزابهم^(١) وعاداتهم ومعايشهم وصائر ما يتصل بحياتهم الأصلية ، وليس ادل على غلبة العروبة في لبنان ، من ان اللغة السريانية وهي لغة دينية عند قسم كبير فيه ، 'تتعلم تعلمًا' ، وليس فيهم من يحسنها تلقياً ، على قداسة هذه اللغة على ما قلنا ، وعلى تفرق القرى اللبنانية وانعزال القسم الأكبر منها في رؤوس الجبال .

ودمشق المدينة العربية الجبارة ، لا يزال على ابوابها ثلاث قرى : معلولا ، وجبمدين ، رنجعة ، يتكلم اهلها السريانية مسلمهم ونصرانهم على السواء . وفي هذا الدليل الذي لا يمارى فيه ، على ان هؤلاء من سلالة سريانية ، احتفظوا بلغتهم حتى بعد اسلامهم ، ولو كان اللبنانيون سريان او جمهورتهم من بقايا السريان ، لاحتفظوا بلغتهم السريانية ، فهم احق من غيرهم بها .
فلبنان ليس ذا وجه عربي ، فالوجه يتقلب ويتلون ، ولكن لبنان عربي الوجه ، والدم ، والجنان^(٢) .

المصلحة المشتركة : وبين الأقطار العربية مصلحة مشتركة ، وعلاقات مترددة مشتبكة ، وهذه العلاقات تنال مناحي الحياة جميعها : المادية والمعنوية ، فليس من هذه الأقطار العربية قطر يستغني عن أخيه . والمصالح المشتركة المستقرة ، هي من جملة العوامل الرئيسية في تكوين الأمة الواحدة ، وتوثيق عراها .

(١) قل أن نجد في لبنان أسرة مشهورة نسبها غير عربي ، واسمها غير عربي . وقد بلغ الأمر بكثير منهم ، أن استعملوا أداة التعريف وأدخلوها حتى على الأسماء الأجنبية جرباً على المادة العربية البدوية . والأسماء القليلة غير العربية عديم ، أكثرها أسماء أنبياء وقرنين ، تسماها تبركاً ، فهي لا تنفي عروبة ، ولا تثبت عجمية .

أما أحزابهم فمصرية محضة ، كان أشهرها اقبسية والبيئية : وكانت غالبية حتى في لبنان «الأقدم» الماقورة وما إليها . وهي المظفة الشمالية من لبنان الحاضر ، والتي كان يطلق عليها وحدها اسم «لبنان» قبل وضعه الأخير ، وقبل التسميات الإدارية الثمانية الحديثة .

(٢) هذه العبارة غضب لها التلون «بالوجه العربي» في لبنان . بل القائلون : ان لبنان [ذووجه عربي] فهاجوا علينا جرائمهم فهاجتنا بما ينم عن أديهم وأديها . . . وقد تجنوا علينا بهذه القضية ساعهم الله . فنحن ليس إياهم خاطبنا فيمنضوا . وإعنا خاطبنا ذوي القلوب العربية ، والفقيدة القومية ، و «ذرو الوجوه» لبسوا منهم ، فيساق الكلام إليهم . . .

كان الظلم اذا شتد في مصر ، لجأ كثير من أبنائه الى الشام ساحله وداخله ،
 واذ ضيم الشام ، فزع بنوه الى مصر ، كان ذلك منذ أيام محمد علي ، فاسماعيل ،
 فتورة عمري ، فأيام عبد الحميد فالاحتلال الأجنبي . وكانت صحافة الشام ولا سيما
 الجنان ، والجنة ، والجنيبة ^(١) متنفساً لنفر من المصريين ، كما كانت الصحافة المصرية
 ولا تزال ، ميداناً فسيحاً لأفلام الاميين ، ولا سيما السوريين واللبنانيين منهم .
 ومصر ، مدينة في بعض نهضتها الى رجالات العلم والأدب والفن من أهل
 الشام ، وبخاصة لبنان ، وقد عاون هؤلاء الأعلام النهضة المصرية ، وهم مديون لمصر
 بثورتهم وتخليد ذكركم . فمن أين لهم أن يذبح صيتهم لو أنهم تزووا في جبالهم
 وقبعوا في قرانهم . أي شيء ، كان يكون البستاني واليازجي والشميل وزيدان
 وضروف ، وغيرهم . لو لم يهبطوا بيروت ، وهي يومئذ من سورية لا من لبنان
 حتى اذا ضاقت بهم قصدوا الى مصر ، فطارت لهم من هناك تلك الشهرة الخالدة ،
 وأدوا فيها للعالم العربي تلك الخدمة الصادقة .

وحرر كاتنا السياسية ! ألم تكن في بادئ أمرها تقليداً لمصر ؟ من سياسة سلبية ،
 الى سياسة ايجابية ، الى بعثات ترسل ، واسماء تطلق ، تتلمذنا فيها على مصطفى كامل ،
 ثم على سعد من بعده .

وأي نكبة حلت بأحد القطرين ، الشامي والمصري ، إلا حل بالقطر الثاني مثلها ،
 حتى كاد يكون أمرهما واحداً ، ومصيرهما واحداً في الاسلام وقبل الاسلام .
 وأقف هنا ولا أزيد في تعداد العلامات والرايطات .

فالأقطار العربية ، وخاصة : مصر ، والعراق ، والام ، - بهذا الذي أصبحوا
 يسمونه سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الأردن واحدة بلغتها ، واحدة بمنصرها ،
 واحدة بمصالحها . واحدة بماضيها البعيد ، وحاضرها العتيد ، ومستقبلها الأكيد .

عارف النكري

(١) الجنان ، والجنة ، والجنيبة : صحف كان يصدرها في بيروت الملم بطرس البستاني اللاتني ،
 أولها شهرية ، والثانية أسبوعية ، والثالثة يومية .